محاضرات في مقياس الفكر الخلدوني

السنة الثانية ليسانس علوم الإعلام والاتصال

تمهيد

هو ولي الدين أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن خالد (خلدون) الحضرمي الذي يعتبر أول من دخل الأندلس، ولد بتونس 732هـ/1332م استقرت عائلته باشبيليا حتى رحلوا منها بعد سقوط دولة الموحدين أين رحلوا إلى سبته ثم إلى تونس و استقروا بها .

تقلد أفراد هذه الأسرة مختلف المناصب الإدارية في اشبيلية بالأندلس،إلا أن الانهيار الذي حصل لدولة الموحدين حتم على أسرته الهجرة إلى مدينة سبته، درس القرآن الكريم وتفسيره والحديث والفقه واللغة وعلوما أخرى على يد عدد من علماء تونس، وتميز بعبقريته وسعة الاطلاع وشغفه بالمعرفة، في بيئة مهتمة بالعلم تعلم القران وحفظه في وقت وجيز على يد والده،ثم على مشاهير زمانه من علماء الأندلس الذين لجئوا إلى تونس فاخذ عنهم علوم الفلسفة والمنطق والطبيعة والرياضيات.

وقد تميزت تلك المرحلة السياسية بجملة من الأحداث كان لها الأثر البليغ على رؤيته السياسية وتفسيره للأحداث، التي وضع من خلالها قوانين جعلته يمسك بزمام علم التاريخ ومن هذه الأحداث البارزة انهيار دولة الموحدين في المغرب الاسلامي622هـ، التي انقسمت إلى دولة بني حفص (تونس)،ودولة بني عبد الواد633هـ في المغرب الأوسط (تلمسان)، ودولة بني مرين591هـ في المغرب الأقصى (فاس) حيث بلغ الصراع ذروته بين هته الدول، إلى جانب الحدث الأعظم المتمثل في سقوط الخلافة العباسية على يد المغول 656هـ.

شهد العصر الذي ولد فيه ابن خلدون صراعات سياسية طاحنة الأمر الذي أكسبه معرفة سياسية معتبرة ساعدته على تقديم تفسيراته الاجتماعية حول مختلف الظواهر السياسية من خلال مؤلفه الشهير:" **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**" الذي أسس من خلاله لمجموعة من النظريات التي مهدت لبروز علم جديد هو علم الاجتماع بمختلف فروعه، حيث وضع مجموعة من الأسس المحددة من خلالها يمكن للمجتمعات البشرية أن تسير وفقها، والتي تسمح إلى قدر كبير بالتنبؤ بالمستقبل، فعلم العمران كما حدده ابن خلدون لا يتأثر بالحوادث الفردية وإنما إلى ما يدور داخل المجتمع ككل، واستطاع أن يعمم ما قدمه على مجتمعات تعيش في أزمنة مختلفة على أن تكون البنى واحدة.

وتمتع ابن خلدون بمكانة علمية كبيرة من خلال تفرده بقراءة التاريخ حيث لم يكتف بإيراد الأخبار والوقائع بل حاول فهمها وتحليلها وإيجاد منهج لحركتها، وهو ما حدا بالبعض إلى القول إنه أعلن ولادة التاريخ بوصفه علما قائم الذات، كما أنه وضع أولى لبنات علم الاجتماع، عاش ابن خلدون

حياته متنقلا بين عدد من الدول من بينها المغرب والأندلس والجزائر والحجاز والشام ومصر، فعمل أستاذا للفقه المالكي ثم قاضيا في القاهرة، وأرسل كسفير لعقد اتفاقات للتصالح بين الدول، تميزت مسيرته بالتنقل بين مناطق عربية متعددة اشتغل خلالها في مجموعة من الوظائف مما سمح له بكسب رصيد معرفي مكنه قدرة على العطاء العلمي فبين المغرب والجزائر ومصر.

شغل العديد من المناصب " أستاذ للفقه المالكي،قاضيا في مصر، كما كان سفيرا لعقد عدة اتفاقيات صلح بين الدول"، إلى جانب العديد من المناصب الرفيعة منها كاتب في بلاط أبي إسحاق الحفصي بتونس، وكاتبا لأبو سالم المريني، وكذلك في دولة بني الأحمر، حيث أن هذه الوظائف السياسية مكنته من دراسة أحوال تلك الدول والشعوب ليكشف عن مواطن القوة والضعف والاستقرار والطبائع والتقاليد.

لم يكتف العلامة ابن خلدون من خلال تفرده بالقراءة العلمية لتاريخ المجتمعات بسرد وقائع وأخبار الناس وإنما محاولة فهمها من خلال تحليلها وفق تدرجها عبر المراحل التاريخية للوقوف على وضع منهج محدد لحركتها وصيرورتها، الأمر الذي جعل دارسي الفكر الخلدوني يجمعون على انه واضع أسس علم التاريخ كعلم قائم بذاته.

بالإضافة أنه قدم طرقا ومناهج في علم الاجتماع، حيث يقول " اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبقة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنيس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم الصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحول".

وتعتبر مقدمة ابن خلدون من أكثر أعماله شهرة، وقد أنجزها عندما كان عمره ثلاثة وأربعين عاما ودامت كتابتها أربع سنوات، استعرض فيها مختلف الحضارات والممالك والقوى السياسية والمدن والقرى والفنون والعلوم، باعتماده على تحليل مختلف الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية التي تسهم في بناء المجتمع الإنساني.

وأكد لبن خلدون على ضرورة وجود علم مستقل يهتم بهذا المجتمع الإنساني(العمران البشري)، وضع له موضوعا ومنهجا يقوم على أساس التأمل والتمحص ينطلق من دراسة الواقع، حيث يقول:" وكان هذا علم مستقل بنفسه، فانه ذو موضوع هو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل

وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته (القوانين)، وهذا شان كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا".

وتحتوي على ستة فصول:

الفصل الأول:

في قسط العمران من الأرض ومختلف الأقاليم وتأثير الهواء على ألوان البشر وأخلاقهم، واختلاف أحوال العمران من الخصب والجوع وما بترتب عن ذلك على البدن والخلق.

الفصل الثاني:

في العمران البدوي والقبائل الوحشية وما يعرض في طبيعة البداوة والحضارة والاختلاف بينهما في الأنساب والعصبية والرياسة والحسب والملك والسياسة، وهو ما يطلق عليه علم الاجتماع البدوي الذي يعتبر سابقا للمجتمع الحضري.

الفصل الثالث:

في الدولة العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وأسباب السيادة وتشييد الدول وكيفية الحفاظ على الملك وشروطه وطبائعه والخلافة ومعنى البيعة وولاية العهد ومراتب السلطان ودواوين الدولة وجنودها وأساطيلها وشاراتها وقواعد الجند والحرب وأسباب ثبوت الدولة وسقوطها، بالتأكيد على نظرية القوة والغلبة حيث يعتبر أن الدولة تأسست نتيجة للعنف وتستعمل كأداة للردع داخل المجتمع وخارجه لفرض هيبتها وحماية حدودها، والدفاع عنها.

ذلك أن استخدام القوة هو مبدأ طبيعي وضروري في الحياة، فالقوة ضرورة بين جميع الكائنات الحية، والعشائر، وبين الدولة والأمم في حروبها فجوهر التاريخ هو التاريخ الاجتماعي الذي يهتم بأنماط المجتمعات الإنسانية حيث تشكل العصبية في تكوينها عنصرا أساسيا. هذا الجانب هو ما يعرف اليوم بعلم الاجتماع السياسي.

الفصل الرابع:

في العمران الحضري والبلدان والأمصار وسائر العمران والمدن والهياكل ونسبتها إلى الدول، ويفصل فيه جميع الظواهر المتصلة بالحضر الذي يعتبره غاية التمدن وهو ما يعرف حاليا علن الاجتماع الحضري الذي يعتبر غاية التمدن.

الفصل الخامس:

في المعاش وجوهره من الكسب والصناعات وقيمة الأعمال البشرية من مسائل الرزق والكسب ومذاهب المعاش وأصنافه بالنظر إلى طبيعة العمران، يكز فيه على تأثير الظروف الاقتصادية على تطور أحوال المجتمع، وهو ما يعرف بعلم الاجتماع الإقتصادي، واعتمد في منهجه في تحليل الظواهر الإقتصادية على استخدام الأدوات نفسها التي تُستخدم في القضايا الإجتماعية، وعلى طبيعة الروابط القائمة بين مختلف الوقائع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والربط بين السلوك الإنساني والظواهر الإقتصادية المحيطة بالبيئة.

الفصل السادس:

في العلوم وأصنافها واكتسابها وتعلمها وجوهرها، ونسبة التعليم إلى الحضارة، والكلام في كل علم على حدى وتاريخه وشروطه وتصنيفه.

منهج ابن خلدون:

تتضح المنهجية العلمية لابن خلدون من خلال قدرته العقلية على رصد الواقع تأثيراته المختلفة باستقرار الأحداث التاريخية بطريقة ممحصة ناقدة، معتمدا في ذلك على التحقيق مستبعدا منها ما بدا من تفاهة واختلاف، حقق بذلك منهجا جديدا اختلف به عما سبقوه في رصد الأحداث التاريخية وطريقة تحليلها وربطها ببقية الظواهر الأخرى في إشارة لارتباطها بالعمران البشري.

واتخذ بذلك طرقا جديدة أكثر دقة، من خلال مجموعة من المعايير في معالجة الوقائع التاريخية التي تمكن دارس التاريخ التمييز بين الأخبار الصحيحة والمغلوطة، وكان منهجه قائماً على وضع قوانين وأفكار على أساس الملاحظة والتحليل والتفكير.

اعتمد بشكل كبير على المنهج المقارن بين مختلف الظواهر التي مرت عليها الشعوب ومقارنتها بمثيلاتها ونظرائها التي مرت عليها شعوبا أخرى، التي لم يتمكن من الاحتكاك بها، وقدم تاريخ كل دولة على حدى وبشكل متكامل، بالنظر إليه على انه علم قائم بذاته يخضع لمجموعة من القوانين تتحكم فيه وبتأثير مجموع العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تصنع الظاهرة التاريخية.

والتاريخ حسب ابن خلدون هو تحليل، نظر وتحقيق للوقائع وأسبابها كمحصلة الأخبار عن الأيام والدول السالفة، وعلم التاريخ نوع من أنواع المعرفة يقوم على دراسة الظواهر الاجتماعية لتاريخ المجتمعات من خلال الكشف عن مختلف المؤثرات التي تكون تلك الظواهر.

والمعنى الذي يريده ابن خلدون من "نظر وتحقيق" أي رفضه القاطع لسرد الأخبار والإقرار بالتفسير وفهم الوقائع والأحداث، وهو ما يعني الوقوف على معرفة علة الحدث وسببه، حيث يذكر في مؤلفه على انه "علم بكيفيات الوقائع وأسبابها" أي البحث عن أسباب حركة الوقائع والنظر إليه كصيرورة متحولة وفق تلك الأسباب.

وقد استند في منهجه العلمي على الملاحظة الحسية القائمة على جمع البيانات، والتأصيل النظري(التاريخي) بالرجوع إلى التاريخ، الاعتماد على العمليات العقلية للكشف عن القوانين التي تتحكم في الظواهر الاجتماعية من خلال الخطوات التالية:

- ملاحظة ظواهر الاجتماع لدى الشعوب التي أتيح له الاحتكاك بها والحياة بين أهلها
- تعقب هذه الظواهر في تاريخ الشعوب نفسها في العصور السابقة لعصره
- تعقب أشباهها في تاريخ شعوب أخرى لم يتم الاحتكاك بها والحياة بين أهلها.

– الموازنة بين هذه الظواهر جميعا.

– التأمل في مختلف الظواهر للوقوف على طبائعها وعناصرها الذاتية وصفاتها العرضية واستخلاص قانون تخضع له هذه الظواهر في الفكر السياسي وفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع.

وبالتالي فان منهجه يعتمد على جملة من القوانين هي:

– قانون التشابه:

والذي يشدد فيه صفات مؤهلات المؤرخ وما يمتلكه من أدوات تمكنه من الوصول إلى الحقيقة التاريخية " إذ يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة، وطبائع الموجودات واختلاف أمم والبقاع والأمصار في السير والأخلاق والعوائد، والنحل والمذاهب وسائر الأحوال والإحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو ب ون ما بينهما من الخلاف".

قانون التباين:

أي تبدل الأحوال من فترة زمنية إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر، وقانون التشابه ليس أمرا مطلقا، حيث يقول: " ذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم، لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة انتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الأفاق والأقطار والأزمنة والدول".

قانون القياس بالشاهد على الغائب:

يلجأ فيها العقل إلى الفصل في القضايا بطريقة غير مباشرة، أي من خلال الربط بين العلل والمعلولات انطلاقا من مبدأ أن ما يصدق على الجنس يصدق على جميع أفراد النوع، والقياس يعتبر عند ابن خلدون قاعدة استدلالية ، والابتعاد عن القياس في دراسة القوانين العمرانية قد يؤدي إلى الوقوع في المغالطات " وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا،ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها على أشباهها، ولا سيروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، وفضلوا على الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط".

قانون السببية:

وتعني التعليل والربط بين الأسباب والمسببات " في باطنه نظر وتحقيق، وتحليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق".

إسهاماته في الجانب السياسي

من المعلوم أن ابن خلدون اشتغل في الجانب الأعظم من عمره في الجانب السياسي الذي استلهم من المناصب التي مارسها علما بفنونها، ومكنته تلك الاستفادة من تقديم أفكاره من خلال تجربته التي ركز فيها على ضرورة دراسة وتمحيص الجانب التاريخي للدول للاستفادة منه واخذ العبر.

لذا نجد أن مؤلفه سماه " العبر" الذي يدرس تجارب الأمم للاستفادة منها، وفي إحدى الفصول يتطرق ابن خلدون لمفهوم الملك – حقيقة الملك وأصنافه – وأقر بأنه لا يمكن أن يتحقق إلا بوجود العصبية وهو منصب طبيعي للإنسان، غير أنه يرادف بين مفهوم الملك ومفهوم السياسة "السياسة والملك هي كفالة الخلق وخلافة الله في العباد لتنفيذ أحكامه فيهم"، فخاصية الملك ترتبط ارتباطا وثيقا حسبه بالعصبية والسياسة.

ويركز في تحليله لمفهوم السلطة السياسية كإحدى آليات تنظيم المجتمع بتوظيف القوة التي تبرز من خلال المؤسسات الرسمية للدولة، هذه الأخيرة التي يعتبرها ابن خلدون أي الدولة مؤسسة اجتماعية طبيعية لا يمكنها البقاء إلا في مناخ يتسم بالأمن والاستقرار والتنظيم الذي ينتج من قبول الناس لهذه السلطة ثم الخضوع لها، الدولة لا توجد إلا في المجتمع المتحضر، فهي نتاج المجتمع عند درجة معينة من تطوره، وهو ما يعني أنها ظاهرة تلحق بالعمران البشري ".

وحمل مفهومه للسياسة عدة معاني قصد بها التوجيه والإرشاد وكل ما له علاقة بين الفرد والجماعة السياسية من جهة وبين القوى الاجتماعية والاقتصادية التي يضمنها ويحصرها النظام السياسي، وحصر انظمة الحكم في ثلاثة أنواع:

- حكم يستند إلى ضرع الله(الخلافة)

-سياسة عقلية، التي تضطلع بمصالح الدنيا فقط و اعطى مثالا على ذلك (دولة الفرس).

- سياسة مدنية، وهي مثالية مفترضة مثل المدن الفاضلة عند الفلاسفة، وهي بعيدة الوقوع.

وينطلق من مسلمات لقيام الدولة و هي:

* الإنسان اجتماعي بطبعه

* العمران لا يتحقق إلا بالاجتماع

* الاجتماع لا يتم إلا بوجود الوازع الذي يرجع إلى الطبيعة العدوانية في البشر .

. أداة الوازع ، القهر والقوة والغلبة والسلطان.

يعتمد تطور الدولة في المفهوم الخلدوني على تطور العلاقات داخل الجماعة قادت الثورة (العصبة الحاكمة)، أي من خلال العصبية داخل العصبة الحاكمة بما يعني تطور الدولة ككل حاكمين ومحكومين من خلال ثلاث أطوار رئيسية يحددها ابن خلدون كالتالي:

الطور الأول: طور التأسيس والبناء

أولى بوادر هذا الطور هي ملامح الانتقال من خشونة البداوة إلى ملامح التحضر التي تبدأ في الظهور تدريجيا نظرا لان صفات البداوة من خشونة وتوحش من شظف العيش والبسالة والافتراس ولا تزال العصبية محفوظة فيهم وحدهم مرهف وجانبهم مرهوب،وهي مرحلة بداية تأسيس الدولة(مركز السلطة) في يد فرد واحد قبلت به العصبيات أن يكون حاكما عليهم " لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد، فلا تزال بذلك صورة العصبية محفوظة فيهم فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون".

يتميز هذا الطور بخصائص ومميزات معينة، أهمها:

أ- **استمرارية العصبية:** سيطرة الأنا العصبي على الأنا الفردي داخل العصبة التي استلمت الحكم والسلطة، في هذا الطور تعتبر العصبية الغالبة الحكم مغنما(مكسبا) لها، وقائدها يعتبر نفسه واحدا منها وخادما لها وفق التقاليد البدوية القبلية ولا ينفرد بشئ دونهم لأن ذلك هو مقتضى العصبية، وحسب ابن خلدون فالعلاقات السائدة داخل العصبية الحاكمة في هذا الطور الأول من أطوار الدولة تعني بكل وضوح المساهمة في السلطة، والمشاركة في الثروة الناجمة عن الغنائم (غنائم النصر).

ب- **طور التأسيس:** تعني هذه الميزة أن العلاقات القائمة بين الدولة ورعيتها هي من جنس علاقات الأفراد ببعضهم البعض، فإذا كانت العلاقات القائمة بين أهل الدولة، أفراد العصبية الحاكمة، هي علاقات مشاركة ومساهمة، فإن علاقاتها مع أهل العصبيات الذين أصبحوا تحت سلطتها، ومع سكان المناطق الخاضعة لنفوذها، هي أيضا علاقات تتسم بكثير من الرفق والتسامح لأنها صادرة من الخلال الحميدة التي جعلت العصبية الحاكمة تتبوأ منصب الرئاسة ومن ثمة الملك.

وهي الميزات التي تؤهل للرياسة والملك، وواضح أن الإنصاف بها يتطلب أن يكون صاحبها رئيسا أو ملكا بالفعل، أو على الأقل في طريقه إلى الرئاسة العامة أي الملك، ومن هنا كانت هذه الخلال لا تتحقق إلا في طور تأسيس الدولة، فالعلاقة القائمة بين صاحب الدولة مع أهل العصبية مبنية على

سياسة كسب القلوب مع أفراد عشيرته، أما سياسة العصبية الحاكمة مع العصبيات المغلوبة قائمة على سياسة كسب الولاء والمناصرة.

ج- **السياسة المالية للدولة:** تابعة للأساس الذي أقامت عليه مجدها، فإذا كان الأساس الذي أقيمت عليه هو الدين كانت سياستها قائمة على أسسه،فليست تقتضي إلا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية، وهي قليلة الوزائع، وبالتالي فإن سياسة الدولة في هذا الطور تقوم على ثلاثة أسس سليمة:

1/ زيادة التعاون والتضامن لتحقيق الأهداف والغايات المشتركة عن طريق نظام المشاركة والمساهمة في إطار العصبية الحاكمة، وهو عنصر جوهري في الحفاظ على الوحدة والالتحام داخل العصبية الغالبة " اعلم أن صاحب الدولة إنما يتم أمره بقومه، فهم عصابته وظهراؤه على شانه، وبهم يقارع الخوارج على دولته، ومنهم من يقلده على أعمال مملكته، وجباية أمواله، لأنهم أعوان على الغلب، وشركاؤه في الأمر، ومساهموه في سائر مهماته".

2/ سياسة كسب القلوب وإنزال الناس منازلهم، والعاقات الحسنة بين أفراد العصبية الغالبة فيما بينهم من جهة وبين أفراد الدولة المنهارة، وهذا ما يضمن للدولة ولاء مختلف الفئات التي تنطوي تحت حكمها، ومع الدول المجاورة فتقوم على سياسة حسن الجوار.

3/ حسن تدبير السياسة المالية وعدم الإسراف في النفقات وعدم الغلو في فرض الضرائب والجبايات، والعمل على خلق الاطمئنان فيزداد ولاء الرعية للدولة وتمسكها بعصبيتها بتجميع المال تراكمه في يد الدولة تحقيقاً للعدالة التي تعد أساس التحضر.

الطور الثاني: طور العظمة والمجد

يقوم على ثلاث ميزات تناقض ميزات الطور الأول وهي ناتجة عن الرخاء الذي ساد الدولة في مرحلة متأخرة من الطور الأول، فبدلا من خشونة البداوة تظهر رقة الحضارة وبدل من المساهمة والمشاركة يبدأ الانفراد بالسلطة والمجد وبروز ملامح الاستبداد،وينسون حياة البساطة ويتم الاقتصار على الضروري إلا في القليل، وينزع صاحب الدولة للاعتماد على الموالين والمصطنعين بدلا من اعتماده على عشيرته وعصبيته والاستغناء عنهم تدريجيا.

ويصبح العامل الاقتصادي أشد تأثيرا نتيجة لوفرته، وتبرز المصالح الخاصة الشخصية التي تتناقض مع المصلحة المشتركة التي كانت أساس العصبية والملك، وتختفي التضحية من أجل المصلحة العامة وتبرز ملامح الترف والتفنن "وذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد والعمومية

فتكثر العصابة واستكثروا أيضاً الموالي والصنائع، وربيت أجيالهم في جو من النعيم، فازدادوا بهم عدداً إلى عددهم وقوة إلى قوتهم بسبب كثرة العصائب حينئذ بكثرة العدد".....ينزعون في ذلك رقة الأحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية ويتفاخرون في ذلك، ويفاخرون فيه غيرهم من الأمم في أكل الطيب ولبس الأنيق وركوب الفاره ".

الطور الثالث: طور الهرم والاضمحلال

من خلال استعراض الطورين السابقين اتضح أنهما أساسيان لقيام الدولة، والهرم إنما يصيب الدولة إذا أصاب إحدى هاتين الدعامتين، أو كلتاهما ضعف أو خلل، وهو ما اقره في فصل **في كيفية طروق الخلل إلى الدولة** : "اعلم أن مبنى الملك على أساسين لابد منهما؛ فالأول: الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالجند، والثاني: المال الذي هو قوام أولئك الجند وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال، والخلل إذا طرق الدول، طرقها في هذين الأساسين".

عندما يبلغ الاستبداد مرحلة متقدمة بفعل الإكثار من الضرائب والمغارم، عندها تتفكك العصبية وتضعف لحمتها، يحتقن الناس من الوضع القائم ويتقاعسون عن العمل وتكون النهاية ضعف الدولة بفساد عصبيتها ودخولها مرحلة الهرم والأفول، بفعل الأزمة الاقتصادية الناتجة عن تجاوز نسبة النفقات لمداخيل الدولة – وعد إيفاء الدخل بالخرج – يتبعه الترف السلبي الطابع يفتقر إلى مقوم الأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة، وبالتالي ينعدم التعاون والتضامن الاجتماعي، فيكثر التحاسد والتباغض، وينتهي الإحساس بالمصلحة العامة، وتتكالب الناس على تحقيق المصالح الخاصة.

ويصف ابن خلدون أهل الطور الثالث " فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبية، بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ فيهم غايته بما ملكوه من النعيم وغضارة العيش، فيصيرون عيالا على الدولة، ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العصبية بالجملة، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ويلبسون على الناس في الشارة و الزي وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها، وهم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها، فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته، فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة، ويستكثر بالموالى، ويصطنع من يغني على الدولة بعض الغنى، حتى يتأذن بانقراضها، فتذهب الدولة بما حملت فهذه تراه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلقها".

نظرية التعاقب الدوري

اهتم ابن خلدون بدراسة ظاهرة (التعاقب الدائري للهيئات الحاكمة) وقد اعتبر هذا التعاقب خارجاً عن نطاق الإرادة الإنسانية، فأراد إن يعرف أسباب حدوثه بطريقة منتظمة، وقدم في دراسة ثلاث مراحل طبيعية للدولة تتميز كل واحدة بخصائص عن الأخرى، وهو ما يفسر الطابع العلمي في تفسير الظاهرة السياسية.

الجيل الأول:

يحافظ فيه الحاكم على خلق البداوة وخشونتها من بسالة وافتراس، والاشتراك في المجد، وتبقى صورة العصبية محفوظة فيهم والناي لهم مغلوبون وذلك بسبب حداثة عهدهم بالحضارة.

الجيل الثاني:

يلاحظ هذا الجيل ماقام به الجيل السابق من معانة في سبيل ما حققه من انجازات ليصل ما هو عليه من مجد، إلا انه يتميز عن الجيل السابق بحياة الرفاه والتحضر، ويأخذ بالاستبداد بالملك تدريجيا، مما يجعله يضعف من قوة العصبية، لكن هذه الأخيرة لا تنحل. " والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترف من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف والخصب ومن الاشتراك في المجد إلى انفرد الواحد به".

الجيل الثالث:

هذا الجيل يرتبط إلى حد بعيد بمرحلة الضعف والانحطاط بسبب الراحة والدعة التي يعيشها الأفراد وانغماسهم في الترف والنعيم والإسراف، وتوكل مهمة الدفاع للمرتزقة من الحراس، وينزلون منزلة النساء والأولاد، يكثرون من الاستهلاك على حساب الإنتاج وهي مرحلة الانقراض لتعلن بداية مرحلة حضارية جديدة.

مفهوم العصبية:

الإنسان بطبيعته يحتاج إلى سلطة توفر له الحماية (الوازع) ومنه ضرورة الاجتماع البشري فرضت وجود الدولة التي لا تنشا إلا بالعصبية، التي هي من أسس ومقومات السلطة السياسية، يعتبر مفهوم العصبية من المفاهيم الأساسية في بناء الدولة عند ابن خلدون، واستند في صياغة هذا المفهوم إلى المعنى الموجود في القران الكريم وربطه بالواقع المعاش في البيئة العربية، وهي مشتقة من العصب التجمع "لقوله تعالى "ونحن عصبة ...." سورة يوسف.

والتي تعني الجماعة المتحدة (القوة) وهي شعور معنوي أي أن الفرد يشعر بأنه ينتمي إلى الجماعة وجزء لا يتجزأ منها ومستعد للذود عنها،لكن معناها قبل ظهور الإسلام كان مختلفا عكس ما جاء به من الوحدة والترابط والعصبية في نظرهم لا يعتبر من القبيلة وكذلك من يقاتل على العصبية ومن مات عليها .

وجاء في معجم لسان العرب أنها تعني"أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته" وهي طبيعة متجسدة في المجتمع البدوي والتي تقتضي نوعا من التماسك الطبيعي بين أفراد القبيلة، أما ابن خلدون فيحصرها بأنها رابطة اجتماعية نفسية تربط أفراد جماعة بشرية معينة قائمة على القرابة الدموية، وتشتد هذه العصبية في أوقات الأزمات والخطر ويعتبرها ظاهرة طبيعية تهدف إلى التناصر لدحض العدوان.

وقد حددها بـقوله :" وذلك أن صلة الرحم طبيعي في البشر إلا في الأقل، ومن صلتها النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة، فان القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا، فإذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريبا جدا بحيث حصل به الاتحاد الالتحام كانت الوصلة ظاهرة، فاستدعت ذلك بمجردها ووضوحها".

فالعصبية تقوم بدور لم الشمل والبقاء داخل المجتمع الواحد المتماسك حتى ولو لم تجمعهم رابطة النسب، فالمجتمع القبلي هو أول من يحتضن العصبية وتتحقق بوادرها فيه فالقبائل هي أصل العصبية وهي الهدف الأساسي للوجود الحضاري للإنسان،وهي من خاصية أساسية للقبيلة تشكل إحدى قواعد نظامها، فدراسة ابن خلدون تقوم على أن العصبية تشكل محورا أساسيا في بناء واستمرار المجتمع الإنساني، ويرى أن العصبية نوعان عامة وخاصة.

العصبية الخاصة هي التي يجمعها نسب خاص أو قريب فتشكل عصبية خاصة، أما العصبية الأكثر اتساعا وتمتاز بقلة الترابط ونسب بعيد تشكل ما يسمى بالعصبية العامة " النعرة تقع من أهل نسبهم المخصوص ومن أهل النسب العام إلا أنها في النسب الخاص أشد لقرب الحمية".

وأقدم ابن خلدون على استخدام المفهوم في سياق تحليله للظواهر الاجتماعية فنقله من القاموس إلى الواقع وأعاد إنتاجه سياسياً، فهو يستخدم العصبية في معنى اللحمة وهي على ضربين: طبيعية (نسب) وفائدة النسب انه يعزز "الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنعرة" واجتماعية (ولاء) وهي تقوم عندما تكون " وصلة الرحم" ضعيفة فيحل مكانها " الولاء والحلف " إذ " نعرة كل احد على أهل ولائه وحلفه للألفة التي تحلق النفس من إهتضام جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب".

وتنشا العصبية باعتمادها على النزعة الطبيعية الموجودة في البشر وهي الاجتماع الإنساني (الرابطة الأولى) للتجمع، والتي تحقق فاعليتها في المجتمع القبلي، يرى إبن خلدون أن القبائل أصل العصبية وفيه تكتسب كامل قواها، ولابد لهذه العصبية من وجود أسس تقوم عليها، وهما الأساس المادي والأساس المعنوي باعتبارهما الهدف النهائي للعمران البشري.

- الأساس المادي:

يقول إبن خلدون في الفصل الثامن من الباب الثاني في إن العصبية إنما تكون من الالتحام والنسب وهي رابطة الدم وتشمل أبناء الأسرة التي تجمعهم قرابة دموية من الأقربين أهل البيت والعشيرة، " إن صلة الرحم طبيعي في البشر إلا في الأقل، ومن صلتها النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام". والرياسة لا تكون إلا من أهل العصبية " وذلك أن الرياسة على أهل العصبية لا تكون إلا بالغلب، و الغلب إنما يكون بالعصبية كما قدمناه.

فلابد في الرياسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالإذعان والإتباع، والساقط نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب". وهذا الأمر موجود عند الكثير من الأمم على غرار المجتمعات العربية.

الأساس المعنوي:

يحتوي مفهوم العصبية حسب ابن خلدون بالإضافة إلى صلة الرحم والنسب الولاء والتناصر بين العصبيات " فإذا اصطنع أهل العصبية قوماً من غير نسبهم، أو استرقوا العيدان والموالي، والتحموا بهم كما قلنا، ضرب معهم أولئك الموالي والمصطنعون بنسبهم في تلك العصبية ولبسوا جلدتها كأنها عصبتهم،وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها....". فالعصبية في هذه الحالة تتعدى رابطة الدم لتتعدى المنتسبين بالولاء والحلف والرق (المصطنعين).

فهو بذلك يريد القول بتوسع نطاق العصبية من القرابة الضيقة (العائلية) إلى القرابة المتضمنة للولاء والأحلاف ذلك انه لا بد من وجود عصبية غالبة أقوى من خلال التحالفات بين العصب الأخرى بهدف الحماية من العدوان لتصبح عصبية واحدة تتحكم في باقي العصب " ثم إن القبيل الواحد وإن كانت فيه بيوتات

متفرقة وعصبيات متعددة فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها ونصير كأنها عصبية واحدة كبرى".

إسهاماته في الجانب الاجتماعي

يرى أن المجتمع كظاهرة طبيعية في بداية تشكله انقسم بفعل تأثير العامل الاقتصادي (الغذاء) إلى طبقات " أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من الغذاء، غير موفيه له بمادة حياته.... فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه، ليحصل القوت لهم، فيحصل بالتعاون القدرة الكافية لأكثر منهم بأضعاف".

فالمجتمعات تنقسم حسب طبيعة النشاط الاقتصادي بين مجتمع حضري يمتاز بإنتاج مختلف الصنائع، ثم المجتمع القروي الذي يمتاز بالحياة الزراعية، وفي الأخير المجتمع البدوي الذي يقوم لا على الزراعة ولا على الصناعة وهم القائمون على تربية الماشية(طبيعة رعوية)، فالتصنيف الذي اعتمده ابن خلدون قائم على النظام الإنتاجي أو كما يصفه في مقدمته بـ(المعاش).

إن الطرح النظري الذي قدمه ابن خلدون في تحليله للمجتمع العربي لم يكن تحليلا عارضا، بل كان تحليلا دقيقا يتضمن الكشف عن الحقائق والقوانين الاجتماعية من خلال الفهم والتفسير بالاعتماد على الملاحظة والمقارنة بين جملة المعطيات التاريخية حول تطور المجتمعات وذلك طبعا بعد تخليصها من مواضع الشك واللبس،وهو الواقع الذي فرض استخدام منهجية علمية دقيقة تقوم على النظر والتحقق.

وابرز خلال تحليله لواقع المجتمع العربي ظاهرة اجتماعية والتي أصبحت موضوع علم الاجتماع الحديث "التغير الاجتماعي" التي ترتبط إلى حد بعيد بتطور المجتمعات الحديثة وهي إحدى آليات العمران البشري كما حددها في دراسته " من الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال والأمم والأجيال بتبدل الأعمار ومرور الأيام، وهو داء دوى شديد الخفاء، اذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يتفطن إلا الآحاد من أهل الخليقة، لان أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحاهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، انما هو اختلاف في الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال كما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار".

إسهاماته في الجانب الاقتصادي

احتل الجانب الاقتصادي حيزا كبيرا في فكر ابن خلدون على اعتبار انه يشكل بعدا من أبعاد العمران البشري والتجمع الإنساني، وانطلاقا من العامل الاقتصادي (الترف) الذي يكون إنشاده سببا في تشكل الدولة والمبالغة فيه هو سبب انهيارها. حيث ركز في تحليله على الصناعة والتجارة والزراعة والتي تعتبر من مظاهر التحضر حيث أن لكل مجتمع أدواته ووسائله الحضارية، وعلومه وقدراته الفكرية ونظمه الخاصة به التي تميزه عن الحضارات الأخرى.

ويعتبر التطور في مجال الصناعة ابرز مظاهر تطور الفكر الإنساني التي تعكس قدرته على حسن استغلال موارده " فقد استغل الإنسان المعادن و الصخر وصاغ منها أدوات معدنية وأسلحة، وصنع منها المعاول والمطارق والسندان والفئوس والملاعق والأطباق، وقد مر الإنسان بمرحلة طويلة جداً خاض خلالها عدد اً ضخماً من التجارب بمزج الأطعمة بعضها مع بعض لإيجاد أنواع جديدة من المأكولات لتحويل المنتجات الطازجة إلى مطبوخة....".

أشار ابن خلدون إلى ترتيب المجتمعات وفقًا لأساليب الإنتاج فوضع الصناعة في مقدمة الحياة الحضرية ثم تليها الزراعة ثم البدو وهذا يشابه فكر النمو الاقتصادي وتطور الاقتصاد من هيكل اقتصادي متخلف إلى آخر متقدم، بمعنى أن الاقتصاديات الصناعية، فالتطور الحاصل في المجال الاقتصادي ينعكس بالضرورة التطور في مجال العلاقات الإنتاجية وما تفرزه من طبقات اجتماعية متباينة على مستوى الإنتاج والاستهلاك وتقسيم العمل والتفكير.

ويعتبر التبادل التجاري ورواجه من مظاهر تحسن المستوى المعيشي للمجتمع وما يرافقه من حرية التملك الفردية التي كانت في المجتمع البدوي ملكية فردية، واعتبر ابن خلدون أن العمل هو المحور الأساسي الذي تدور حوله العملية الإنتاجية ووسائل الإنتاج زهنا تبرز أهمية العمل من خلال التخصص الذي يظهر القيمة الفعلية للعمل.

هذا الأمر الذي يظهر جليا في المجتمع الحضري نظرا لتعدد الصنائع " وأهل المدينة أو مصر إذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم وحاجاتهم اكتفى فيها بالأقل من تلك الأعمال، وبقيت الأعمال كلها زائدة عن الضرورات فتصرف في حالات الترف وعوائده....فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها بينهم فكثرت مكاسبهم ضرورة، ودعتهم أحوال الرفه والغنى إلى الترف وحاجاته من التأنق في المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب....." .

كما تناول كذلك القوانين المتحكمة في الأسواق والأسعار "قانون العرض والطلب"، وتقسيمه لأنواع السلع الضرورية منها والثانوية واقر بان ضعف العمران يكون بانعكاسها أي أن الضروري يصبح ثانويا والعكس صحيح،و حسب ابن خلدون فان التخصص وتقسيم العمل يعد حافزا للصراع أو التنافس الاقتصادي حول مصادر العيش والرخاء وهو ما يعكسه توفر الوظائف بمختلف أشكالها التي تنعكس على رواج التجارة وبالتالي إلى تغير في أنماط التفكير الاجتماعي، و إلى إظهار قيمة العمل في حد ذاته.

المراجع

- عبد الرحمان ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت2000

- حسن الساعاتي، علم الاجتماع الخلدوني :قواعد المنهج، دار النهضة

- أحمد الزعبي: مقدمة ابن خلدون،شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان

- عبد العليم عبد الرحمان خضر: المسلمون وكتابة التاريخ- دراسة في التأصيل الإسلامي لعلم التاريخ، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بيروت 1993.

- علي عبد الواحد الصائغ: رؤية تحليلية للمفاهيم والمصطلحات السياسية عند إبن خلدون، مجلة القادسية في الآداب والعلوم والتربية، العدد1، المجلد 7، السنة 2009.

- حدة عمران، ماجدة عمران: مناهج البحث في علم الاجتماع عند إبن خلدون، مجلة العلوم القانونية والإجتماعية، جامعة زيان عاشور، الجلفة، المجلد الخامس،العدد الثالث، سبتمبر 2020.